﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من الوعيد فيما هو آتٍ إلى التَّذكير بما سبق

لمّا ذكر عاقبة إضلال سادة المشركين النّاسَ وصدّهم عن القرآن والنبوّة في الآخرة، ناسب أن يذكر ما أصاب من سبقهم من الأقوام الضّالة في الدُّنيا، مثلُ ما أصاب من قبلهم من العذاب والإهلاك عقابًا عاجلًا على مكرهم وخُبْثِ فِعالِهم، فالمناسبة بين الآيات هو الانتقال من الوعيد فيما هو آتٍ، إلى التَّذْكيرِ بالعقوبة فيما سبق.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَخَرَّ﴾: أصل (خرّ) يدلّ على اضطرابٍ وسقوطٍ مع صوت، ومنه الخُرور: السّقوط من علوّ مكانٍ يكون معه صوتٌ غالبًا، ومنه الخرير: وهو صوت الماء والرّيح وغير ذلك ممّا يسقط من علوّ، والمراد هنا: سقط السّقف عليهم، وانهدم على رؤوسهم[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا أمان لِمَنْ لا إيمان له

تُبيِّن الآيةُ مكرَ الكفّار السّابقين، وكيف قد مكروا المَكايدَ لِرُسلِ اللّهِ وأتباعهم من المؤمنين، فعاقبهم الله تعالى بأن دمَّر بنيانهم من أصوله وقواعده، فلم يبق لهم أصلٌ ولا فرع، ثمّ خرَّ على رؤوسهم السَّقف، وأتاهم عذاب الله تعالى من حيث لا يشعرون، فالآية تُبيِّن الغفلة التي يعيشها أولئك الماكرون، الّذين يظنّون أنّهم على شيءٍ من الثَّبات والقوّة، فيُمهل الله لهم ثمّ يأتيهم بأصناف العذاب على حين غِرَّةٍ، فيقع العذاب عليهم من حيث لا يحتسبون.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خر)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خرر).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الجملة:

سنَّةُ الماكرين ماضية وسنَّة الله فيهم باقية

جملة ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استئنافيّة، أفادت تهديدَ المُخاطَبينَ بالاعتبارِ بمن سبقوهم في المكرِ والحيلة، فلم يُسْلِموا أو ينتصروا، إذ مكر الله بهم فأتاهم من حيث لم يحتسبوا جزاءً وِفاقًا، فالغرض هو تحذيرُهم من عاقبة أفعالهم حتى لا يجري عليهم ما جرى على أسلافهم من الإهلاك والتّدمير، وفي استئناف الجملة تقريرُ سنّةِ اللهِ للمؤمنين حتّى لا يحزنوا ولا يهونوا بمكر الكافرين، فأعْلَمَهُم - بفعلِه بهم - أنّ سُنّتَه في إهلاك الماكرين حتميّةٌ لا تنخرِم، فليصبروا، ويثْبُتوا[1].

غرض التّوكيد بأداة ﴿قَدْ﴾:

أصحابُ المكرِ يكيدون الرّذائل في كلِّ وكر

استهلَّت الآية بأداة ﴿قَدْ﴾ التّحقيقيّة في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لتحقيق مضمون الجملة وتوكيده، والإخبار بأنّ مَكْرَ أسلافهم كان مَكْرًا مُدبَّرًا صادرًا منهم عن خُطّةٍ وحيلة، فأداة ﴿قَدْ﴾ تحقّقُ معنى القصديّة، فنيّةُ المكْر وتدابير السوء مُتَجَذِّرةٌ في نفوسهم ابتداءً، فهم قومٌ ماكِرون خُبَثاء، ومكرُهم مكْرٌ متكامِلُ الأركانِ عظيم.

بلاغةُ التّعبير بلفظ المكر:

الماكِرُ بالسّوء فاقِدٌ للعقدِ تاركٌ للعهد

عبّر النَّظم الكريم بلفظ المكْر في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دون غيره من الألفاظ؛ لأنَّهم قصدوا إلى المكْر بمعناه الحقيقيّ، وشرعوا في مزاولة أسبابه من التّدابير الفاسدة والحيَل الخبيثة؛ ليصرفوا الناس عن الحقّ، ويضُرّوا بالمؤمنين في تخَفٍّ واستتار[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 133، ومحمود صافي، الجدول: 14/ 304.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 256.

احتمالُ اللّفظِ الواحدِ للحقيقةِ والمجاز:

اللفظُ القرآنيُّ ذو احتمالاتٍ متنوّعة ومعانٍ متعدّدة

التّعبير بالفعل الماضي بلفظ المكر المفيد تحقّق المكر ووقوعه في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إمّا أن يُحمل على المجاز أو على الحقيقة.

فإذا جعلنا المكر هو الأخذ بأسبابه والشّروع في مقدّماته من غير إنفاذه ووقوعه؛ إذ الواقع هو مقدّماته المؤدّية إليه، ولقوّة أسباب المكر وترتيبهم لها على وجْهٍ لا يتخلّف معه المكرُ حقيقةً في زعمهم؛ مع التّعبير عن ترتيبهم لأسباب المكْر بالمكر، وقرينة المجاز هو دفْع مكرِهم بقوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾ فهو مجازٌ مرسلٌ علاقته المسببيّة، حيث أطلق المسبَّب وهو النّتيجة، وأراد السَّبب.

وإذا نظرنا في قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ على معنى رفع المكر بعد وقوعه، لا دفْعِه قبل حصوله، وأنّه لا انفكاك بين مزاولةِ أسباب المكر ووقوع المكر؛ لأنّ وقوع الأسباب مُلتحِقٌ بنتيجته، وتهيّؤ الأسباب وإمضاؤها هو من المكْر الذي يضرّ من حيكَتْ عليه، وأنّ وقوع المكْر لا بدّ منه في سنّة الابتلاء من أنّ الله يبتلي النّاس بالنّاس، ويدفع بعضَهم ببعض، وأنّ وقوع المكر حقيقةً، ثمّ رَفْعُهُ أبلغ في الامتنان على المؤمنين؛ لأنّه إنقاذٌ من البلاء بعد التلبّس به، فهو أحقّ بالشّكر والامتنان، إذا اعتُبِر ذلك كلّه لا سيّما مع ﴿قَدْ﴾ التّحقيقيّة في صدر الجملة فالكلام جارٍ على الحقيقة.

إلّا أنّه سَيَرِدُ بِمُسوِّغٍ آخر للمجاز باعتبار آخر، وهو أنّ المجاز قد يتعلّق بالمكْر من جهة كونه مكْرًا غير تامّ، فهو في وقوعه ناقصٌ مُسْتَدْرَكٌ بِغَلَبَةِ الله وتدبيره، ولذا فالمجاز غير مُنْتَفٍ أو مردود[1].

آثـار الماكـرين شـاهـدةٌ ورسـومـهـم في الدّيار راكدة

نكتةُ التّعبير بالاسم الموصول دون (السّابقون):

آثرَ النَّظم الكريم استعمال الاسم الموصول في قوله تعالى:

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 256.

﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ دون أن يوجز ذلك فيقول: (قد مكر السّابقون من قبلهم)، ونكتةُ ذلك الدّلالة على أنّ تاريخهم معروفٌ غيرُ منكور، وأنّ الماكرين حاضرون بسيَرِهم وعِبَرِهم؛ فأحوالهم مفهومة وأعيانهم معلومة لا تخفى، والتّعريف بالموصول يُفيد دخول عموم السّابقين، أي: كلّ جيلٍ ماكرٍ، فلم يَفْلِتْ منهم أحدٌ، أو يَفُتْ منهم ماكِر[1].

معنى ﴿مِن﴾ الابتدائيّة ودلالتها الإشارية:

وعيدُ الإنسان بالمعلوم أوقعُ أثرًا من وعيدِه بالمجهول

تعلَّق الجارّ والمجرور ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ بمحذوف هو صلة الموصول، أي: الّذين كانوا من قبلهم، و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ابتدائيّة، أي: المكر الذي كان ابتداءً من جهةِ الّذين من قبلهم، والقَبْلِيَّةُ المذكورة ليست مطلقة؛ بل هي القَبْلِيَّةُ الّتي يُدرك المخاطَبون ابتداءها، ولهذا المعنى حسُن الوعيد بما يعرفون، ولو كانت مطلقة لكان مجرَّد ذِكْرٍ، فإنَّ الإنسان يَقَعُ الوعيد في قلبه موقعًا حسنًا فيما يعلم، لا فيما يجهل، وفيه تَلْويحٌ بما يعرفون ممّا وقع للسّابقين، وقد ناسب هذا المعنى قولهم: (أساطير الأوّلين)، فهم يتّهمون القرآن بأنَّه أساطير، وهو يُهدِّدهم، ويتوعدهم بمضمون هذه الأساطير.

معنى الفاءِ ودلالتها:

العقابُ الإلهيُّ جزاءُ العمل الماكر

عطفتِ الفاء قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ على الجملة السّابقة الاستئنافيّة ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للإيذان بأنّ قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ جزاءٌ على مكرهم ونتيجةٌ له[2].

بلاغة المجاز بالحذف:

تعظيم العذابِ تابعٌ لتعظيم المكر بالعباد

في قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ مجازٌ بالحذف، والتّقدير: أتى أمرُ الله بنيانهم، وقرينة الحذف: أنّ حقيقة الإتيان؛ الانتقال

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 388، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 133.
(2) محمود صافي، الجدول: 14/ 304.

من حيّزٍ إلى حيّز، وهو ما يتنزّه عنه الخالق سبحانه، وغرض الحذف: المبالغة في استيلاء العذاب عليهم، وكأنّ اللّهَ قد حضرهم بذاته العليّة فأنّى لهم الفِكاك! وأيضًا: جريًا على العادة في التّعبير عن أدوات المَلِك في البطش والانتقام بذكر ذاته تعظيمًا للعقوبة، كمن ينذر عدوًّا فيقول: سيأتيكم الرّئيسُ أو الحاكم بما لا قِبَل لكم به، والمراد مجيء جنوده وقوّاته لا مجيء ذاته، ولله المثلُ الأعلى[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة:

مآل بنيانِ المكْرِ سقوطٌ ليس من بعده قيام

في تركيب ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ استعارةٌ تمثيليّة حيث شبّه حال الماكرين بالرّسُل والمؤمنين في إحكامهم الحيَل والمكائد الّتي انقلبتْ عليهم وارتدّتْ في نحورهم، بحال قومٍ شيّدوا بنيانًا وأحكَموا أساسه فانهار من قواعده، فانهال عليهم سقفُه وتهدّم، والجامع بين الحالين هو أنّ ما جعلوه سببًا لبقائهم ونجاتهم، كان هو سبب إهلاكهم[2].

سرُّ بناء الفعل للفاعل وهو لفظ الجلالة:

ذكـــرُ الاســـم الجليل كفايةٌ لكلِّ أمرٍ جليل

الغرضُ من التّصريح بلفظ الجلالة في قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾، وبناء فعل الإتيان للفاعل دون المفعول كأن يُقال: (فأُتيَ بنيانهم)؛ لتربية المهابة في النّفوس، وللإيذان بأنّ مكرهم بالرّسل وبالمؤمنين هو في حقيقة الأمر خصومة مع اللّهِ العظيم الّذي يتولّى الانتقام بنفسه، فلا وسيط يمنعهم منه سبحانه، وكأنّ الغرض من التّصريح بالاسم الجليل هو إظهارُ عظمةِ الله في هذا الانتقام، فكأنَّه قيل: فأتى اللّهُ بما له من مجامع العظمةِ وطلاقةِ القُدرةِ وجبروتِ الهيمنةِ والانتقام.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 97، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/ 343.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 108، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 257، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.

نكتةُ اختيار صيغة (بُنْيان) دون مرادفاتها:

قوّةُ سقوطِ البُنْيانِ كقوّة شموخه وارتفاعه

عبّرتِ الآية بِالبُنْيانِ دون البناء أو المساكن في قولِه تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾ للدّلالة على أنّها أبنيةٌ مُشيّدة ومعالمُ شامخة، وليستْ كأيّ بناء، وهي إمّا أن تكون محمولة على الاستعارة أو الحقيقة، أمّا حملها على الاستعارةِ، فهي استعارةٌ تصريحيّة حيث شبّه شدّة إحكام تدابيرهم وعلوّ قدرها في أسباب الدُّنيا ومَنَعتِها وقوّتها بالبنيان العظيم الذي لا تُنافِسُه سائر الأبنية في هندستِه ومِعمارِه، والبُنْيانُ مصدر كغفران وكفران، وهو هنا بمعنى المفعول، أي: المبنيّ، أو اسم جنس جمعيّ واحِده بُنْيانَة[1]، وأما حملها على الحقيقةِ، فهو على جعل البنيان من الأبنية الشَّديدة العالية المتماسكة، وهذا شأن الطُّغاة أن يعتنوا بأبنيتهم، فيرفعوها بمبالغةٍ وعتوٍّ؛ ليكون وقوعُها مدوّيًا كارتفاعِها جزاءً وفاقًا.

معنى ﴿مِّنَ﴾ الابتدائيّة:

حرف ﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ لابتداء الغاية، أي: تهدّم بنيانُهم ابتداءً من جهة القواعد، فالتهدّم نشأ في البُنْيانِ من تلك الجهة[2] للدلالة على الاستئصال[3].

توجيه الحقيقة والاستعارة في لفظ ﴿ٱلْقَوَاعِدِ﴾:

انتقامُ الله إذا نزل جعلَ من أولي البطشِ عِبْرة

القواعد هي الأسس التي يقوم عليها البُنْيانُ، وكما سبق في جواز حمل الآية على الحقيقة والمجاز، فإن جعلناها من باب المجاز فالقواعد هنا مُستعارةٌ للمقدّمات والأسباب التي بَنَوا عليها مكْرهم وكيْدهم، بجامع الإحكام والإتقانِ في كُلٍّ[4]، وإن جعلناها على الحقيقة، فهي بيانٌ لقوّة الهدم والتَّدمير، وأنَّه سيبدأ من القواعد والأصول.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.
(2) السّمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 257.

نوعُ الفاء ومعناها:

إرادةُ الله إذا صدرت فلا رادَّ لقضائه

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾ إمّا أن تكون عاطفةً الجملة على جملة ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ وهي تفريعيّة؛ لبيان كيفية العقاب بعد تقرير إتيانه وحصوله.

وإمّا أن تكون فصيحة على معنى: فأتى اللهُ بُنْيانَهُم من القواعد؛ فإذا كان ذلك فخرَّ عليهم السَّقْفُ من فوقهم[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالخرور دون السُّقوط:

الخريرُ سقوطٌ له صوت

عبَّرت الآية بالخرور دون السُّقوط في قوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾، باعتبارِ اختصاص لفظ الخرير بأنَّه سقوط يصحبه صوتٌ، فكان التَّعبير بقوله: ﴿فَخَرَّ﴾ للدلالة على أمرين: **الأوّل:** مطلقُ السّقوط، **الثّاني:** الإشعار بصوت أجزاء السّقف، وهو يتهاوى، ويتهدّم، وهو أبلغ من السُّقوط في اصطحابِ هيئة التّهاوي والانهدام في منظرِها والسّماع بها[2].

وأمرٌ لطيف ثالث، وهو أنَّ الخرور يُشعر بأنَّ السَّقف سقط عليهم كالماءِ، ففيه تصوير البناء وقد فُتِّتت أجزاؤه كلُّها، فخرَّت، وسقطت كالرمال، فيكون الإتيان من القواعد، ثمّ تهديم السَّقف عليهم من فوقهم خرورًا مقصودًا في كليهما، أي: أنَّ الإتيان كان للقواعد ابتداءً، فأعقب ذلك إتيان السَّقف.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور على الفاعل:

المـاكـرون مـقـصـودون بـالـعـذابِ مـخـصـوصـون بالعقاب

قُدّم الجارُّ والمجرور على الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾ دون أن يقول: (فخرّ السَّقْفُ عليهم)؛ لتسريع الدّلالة على ذواتِهم المُعذَّبة؛ لأنّها المقصودة من الوعيد، ولاختصاصهم بوقوع العذاب، أي: كان خُرورُ السّقف عليهم خصوصًا، ويصحّ إفادة

(1) محمود صافي، الجدول: 14/ 304.
(2) الراغب، المفردات: (خر).

القصر التّعيينيّ، أي: عُذِّبوا بذلك وحدهم دون غيرهم، ولم يُصَبْ بِتَناثُراتِه المتهدّمة أحدٌ سواهم.

بلاغةُ الإسناد المجازيّ:

إسناد الخرِّ إلى السَّقْفِ في قولِه تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ مجازٌ عقليّ؛ لأنّ ﴿ٱلسَّقْفُ﴾ ليس مُريدًا حتى يفعل، والفاعل الحقيقيُّ هو اللّه ﷻ على معنى: أخَرَّه عليهم، وغرض الإسناد إلى ﴿ٱلسَّقْفُ﴾ بيان شدّة طواعية المخلوقات لأمر اللّه حتّى الجمادات منها، فلمّا انفعلتْ لمراد اللّه بالتّهدّم، صارتْ كأنّها هي الّتي تهدّمتْ بإرادتها؛ لشدّة المُلابسةِ والتأثّر، وفيه إشعارٌ بالمقابلةِ، بأنَّ هذه الجمادات غير العاقلة مطيعة للّه تعالى ولو تهدَّمت، في مقابل أولئك الماكرين، فهم عصاةٌ مجرمون.

حتّى الجماد ينفعِل طوعًا لحكْمِ الله، فما بال بني آدم!

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلسَّقْفُ﴾:

(ال) التّعريفية في ﴿ٱلسَّقْفُ﴾، إمّا للعهد؛ لأنّ القوم الماكرين معهودون لهم بآثارهم المشهودة لهم، أي: السّقف الذي كان يقيم تحته أولئك، أو لبيان الحقيقة والماهيّة أي: جنس ﴿ٱلسَّقْفُ﴾، والمعنى: أيُّ سقفٍ لأيّ ماكِرٍ كان ممّن تقدّمكم.

فائدةُ التَّقييدِ باللّازمِ المعلوم:

قُيِّد السَّقف بالحال المؤكّدة: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾، مع أنّ السَّقْفَ لا يكون إلا من فوقهم، لتأكيد معنى العذاب وتحقيقه، وللدّلالة على أنّهم كانوا تحت السَّقْفِ وهو ينهار؛ ولبيان تحقُّقِ العذابِ عليهم، وفي التّقييد بالفوقيّة "احتراس من احتمال أنّ السَّقْفَ قد يكون أرضًا بالنسبة لغيرهم، فإنّ كثيرًا من السّقوف يكون أرضًا لقوم وسقفًا لقوم آخرين، فرفع اللّه تعالى هذا الاحتمال بعبارتين، وهما قوله: ﴿عَلَيْهِمُ﴾"[1]،

مكْرُ اللهِ بالمجرمين أخذُهم مِنْ مأمنِهم

(1) محمود صافي، الجدول: 5/ 292.

وقوله: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾، ويصحّ تعلّق الجارِّ والمجرور ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ بقوله: ﴿فَخَرَّ﴾، فتكون ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، ولا يكون في الكلام تأكيد[1].

براعةُ التَّعبير بذكرِ الفوقيَّة والقواعد:

إطباقُ العذاب من آمن الجهات يُناسب المكر من كلِّ الجهات

جمع النَّظم بين ذكرِ قيد: ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ وقيد: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾، وهو جمعٌ بين جهةِ السّفول وجهة العلوّ؛ للدِّلالة على إطباق العذاب وإحاطته بهم، وهو يدلّ بلازِمِه على أنّ هذا البُنْيانَ لم يَتبقّ فيه جزءٌ صالِحٌ؛ لأنّ البناء إذا تهدّم من قواعده، وتهدّم من سقفه؛ لم يَعُدْ صالحًا ألبتة، ولم يكن قابلًا للترميم والإصلاح، وفي هذا إيماءٌ إلى أنّ مكرهم فاسد غير فاعلٍ ولا نافِذ، فلا يحقّق شيئًا من أغراضهم الفاسدة؛ بل هو منقلِبٌ عليهم ومرتدٌّ إليهم.

بلاغةُ التَّذييل:

المباغتةُ بالسّوء هي الفأل المُنكَر

جملة ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تذييلٌ يقرّر كيفيّة أحوالِهم الّتي أتاهم العذابُ وهم عليها، بعد أنْ قرّر كيفيّة العذاب ذاته في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾، والواو للعطف على ما تقدّم، تهويلًا لأمر إهلاكهم؛ لأنّ المُباغتةَ في حدّ ذاتها عذابٌ فوق العذاب[2].

معنى التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾:

(ال) في ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ للعهد، أي: العذاب المعهود في مضمون قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾، وهو العذاب العاجل في الدُّنيا، بقرينة قوله بعده: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ [النحل: 27][3].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 388، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 7/ 147.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 367، ومحمود صافي، الجدول: 5/ 292.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 367.

نوعُ ﴿مِنْ﴾ ومعناها:

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ابتدائية تفيد شدّة القُرب، وقوّة المُلاصقة.

بلاغةُ التّعبير بالشّعور:

تسويةُ الماكرين بالأوثان الجامدة تهكُّمٌ وتوبيخ

وصْفُ الماكرين بعدم الشُّعور في قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعد وصفِ الأوثان بها، بأنّ العذاب يغشاهم فجأةً وهم في غفوةٍ من الشّعور وذهولٍ عن الانتباه واليقظة، فيه إشارةٌ إلى عِقابِهم بجنس أعمالهم، فإنّه وصف أصنامهم - على أحد الاحتمالين - بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فكما عبدوا أصنامًا لا تَشْعر، ولم ينتبهوا إلى عجْزها وعدم استحقاقها، ولم يشعروا - وهم يعبدوها - بعدم جدواها وتمام نقصِها، فالجزاء من جنس العمل، فيعاقبهم الله بعذابٍ من حيث لا يشعرون كذلك، وفيه تسويتهم بالأوثان بانتفاء الشُّعور.

وإنما قيّد وقوع العذاب بحال غفلتهم وعدم شعورهم؛ لأنّ الأخذ فجأةً أشدّ نِكايةً وفاجِعة، لِما يقترِن به من الرّعب والفزع الشّديد، بخلاف ما يقع تدريجيًّا، فإنّ النّفس تتلّقاه بصبر[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخرور والسّقوط:

الخرور أخصّ؛ لاقترانه بالصّوت، والسّقوط أعمّ

الخُرورُ هو سقوطٌ من علوٍّ يَصْحَبُهُ صوتٌ، كصوتِ الماء حين يَخِرّ من الشّلّال، وصوتِ السَّقْفِ حين يتتابعُ سقوطُ أجزائه، وأمّا السُّقوط فهو الوقوع أو الطّرح، فوقوع الشيء من علوٍّ إلى دنوٍّ، كسقوط الإنسان من على السَّطْحِ، أو طرح الشّيء بإلقائه أو إخراجه من حيّزه الذي يُمسِكُه، لرداءتِه وقلّة الاعتداد به، كسقوط الحِملِ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.

لأنّه مطروحٌ لا يعتدّ به لعدم تمامه، ولأنّه وقع من حيّزه الّذي كان فيه، وهو بطن أمّه، ويظهر الفرق بينهما من وجهين: **الأوّل**: السّقوط يكون في الأعيان والمعاني، والخرور في الأعيان، **والثاني**: السّقوط قد يصحبه صوتٌ وقد لا يصحبه، وأمّا الخرور فمعه صوت[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خرر، سقط).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»